شيوخ الجامع الأزهر
فى
القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى)

١ — الشيخ الشرقاوى
١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م) — ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م)

نشأته وحياته :

هو الإمام الحجة عبدالله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى ، ولد بقرية « الطويلة » التابعة لمركز فاقوس حالياً بمديرية الشرقية سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) تقريبا [١] ونشأ بها ، فلما شب وترعرع وحفظ القرآن نزح إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر وتلقى دروسه على شيوخه ، وعكف على الدرس والتحصيل حتى تقدم فى العلوم وأصبح أهلا للتدريس فجلس يدرس بالجامع الأزهر ، وبمدرسة السنانية بالصنادقية ، وبرواق الجبرت ، وبالمدرسة الطيبرسية ، وأفتى فى مذهبه ، وبرز فى الإلقاء والتحرير [٢] .

ولما رغب فى الانتساب إلى الطريقة « الخلوتية » ولقنه الشيخ الحفنى الاسم الأول « حصل له وَلَهٌ واختلال فى عقله ، وأدخل المارستان ومكث به أياما ، ثم شفى ولازم الإقراء والإفادة .. » ، ثم تلقن من الشيخ محمود الكردى وقطع الأسماء عليه وألبسه التاج وواظب على مجالسته [٣] .

وكان فى مستهل حياته رقيق الحال فقيراً ، لا يأنف من قبول الهدايا

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ١٧٠ ، حيث يذكر أن الطويله بلدة بشرقية بلبيس بالقرب من العرين، والخطط التوفيقية ج ١٣ ص٦٣ ، وفيها أن الطويلة قرية صغيرة من مديرية الشرقية بمركز العرين ، وبينها وبين القرين نحو ثلث ساعة ... ، ونعرف أنها كانت إلى وقت متأخر تابعة لمركز ههيا شرقية .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٠

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١

من الطعام أو غيره ، أو تلبية الدعوة لتناول الطعام خارج منزله ، وعُرف ذلك عنه فرق لحاله أهل اليسار من عارفى فضله ومكانته فوصلوه بهداياهم وصلاتهم ، فحسن حاله ، وظهرت عليه أخلاف النعمة فتجمل فى مظهره وتأنق فى لباسه[١].

ولما توفى أستاذه الشيخ محمود الكردى خلفه فى الطريق الخلوتية ، والتف حوله أبناء الطريق ، وتلامذته وصاروا يجتمعون به فى كل ليلة عشاء ومعهم المنشدون وغيرهم ممن يقرأ القرآن عند ختام المجالس ، فيذكرون معه ، ويعد لهم طعاماً فى بعض الليالى ، أو يذهب بهم إلى بعض البيوت فى المياتم ، أو فى المناسبات الأخرى فيأكلون عشاء ويقضون بعد ذلك هزيعاً من الليل فى الذكر والإنشاد ، ثم يتناولون وجبة طعام ثانية وينصرفون بعد أن يتقاضوا أجر سهرتهم ، وقد اتسع رزقه من هذا الباب أيضاً ، واشترى لنفسه داراً وترك الذهاب إلى بيوت الناس إلا فى النادر ، واستمر على حاله حتى توفى الشيخ : « أحمد العروسى » فاختير بعده : « لمشيخة الجامع الأزهر » [٢] وكان ذلك عام ١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م) ، وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ « مصطفى الصاوى » ثم تم الاتفاق على اختيار الشيخ : « عبدالله الشرقاوى » على أن يحتفظ الشيخ « الصاوى » بوظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية المجاورة لمسجد الإمام الشافعى رضى الله عنه وكانت من وظائف مشيخة الجامع الأزهر [٣] ، فكان أعظم من تولى مشيخة الجامع الأزهر ، وإن كان عهده أكثر اضطراباً من سلفه ، بل أكثر عهود « المشيخة » اضطراباً فى تلك العصور الخالية [٤] .

بعض أحداث عهده

١ — النزاع بينه وبين الصاوى :

لم يكد الشيخ الشرقاوى يستقر فى منصبه حتى حدث بينه وبين الشيخ مصطفى الصاوى جفوة ونزاع بسبب التدريس بالمدرسة : « الصلاحية » .

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق — والمدرسة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى.
(٤) كتاب « الأزهر » لعبد الحميد يونس ، وعثمان توفيق ص ١٢٩

لأن بطانة الشيخ الشرقاوى حرضته على انتزاع وظيفة التدريس بهذه المدرسة من الشيخ الصاوى ، بحجة أن « المشيخة » لا تتم إلا بوظيفة التدريس فى هذه المدرسة ، وكان رحمه الله « أذُناً » يتأثر بما يلقى إليه ، وينقاد إلى ما يملى عليه فاستجاب لرغبة حاشيته ، واتصل بالشيخ : « محمد بن الجوهرى » و « أيوب بك الدفتردار » وتحدث إليهما فى ذلك فوجد منهما موافقة شجعته على تنفيذ عزمه ، ووثق فى معونتهما عند الحاجة ، فجمع أنصاره وقصدوا جميعا المدرسة الصلاحية يتبعهم خلق كثير من أنصارهم وألقى بها درساً ، فغضب الشيخ الصاوى وحنق على الشيخ الشرقاوى وأعوانه واتصل لوقته بأنصاره وتشاوروا فى طريقة الانتقام ، وانتهى رأيهم على اتصال الشيخ الصاوى « برضوان كتخدا إبراهيم بك الكبير » وكانت له به صلة ، وبينهما صداقة ومعاملة ومقارضة ، فقابله وتحدث إليه فى الأمر بعد أن تنازل له عن ديونه قبله ، فاهتم « رضوان كتخدا » بالأمر ، وقابل الشيخ الشرقاوى وناقشه فى الموضوع وأفحمه ، وفى اليوم التالى قصد إليه فى منزله ثانية ومعه الشيخ الصاوى وجماعته ، وفى المجلس تنازل الشيخ الشرقاوى عن حقه فى التدريس بهذه المدرسة للشيخ الصاوى ، وتقرر ذلك بعد ملاحاة كلامية بين الشيخين ، واستمر الشيخ الصاوى فى هذه الوظيفة حتى مماته [١] .

٢ — وقفه عن العمل :

وقضية هذه المدرسة تطورت بعد وفاة الشيخ : « الصاوى » حتى كادت تطوح بالشيخ الشرقاوى من فوق كرسى : « مشيخة الجامع الأزهر » ؛ وذلك أنه قد عادت إليه وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية بعد موت الشيخ الصاوى دون منازع ، فواظب على التدريس بها ، وقد رأى أن يتقاضى مخصصات هذه الوظيفة فطالب سدنة الضريح بمعلومها فماطلوه ، وألح عليهم فى الطلب فلم يستجيبوا له مما حمله على سبهم والشجار معهم ، فاستعانوا عليه بالفقهاء وغيرهم وتعصب الجميع ضده ، ورفعوا أمره إلى « الباشا » بعد أن لفقوا له عدة تهم ، وجمعوا ضده عدة مخالفات ، واستطاعوا أن يوغروا صدر « الوالى » حتى هم بعزله من مشيخة الجامع الأزهر ، غير أن

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

الرأى استقر أخيراً على : « وقفه عن العمل » فألزم بالاعتكاف فى منزله ، وعدم الخروج منه ، أو ممارسة أى شىء من الأشياء ، أو التدخل فى شأن من الشئون ، غير أن هذا « الإيقاف » لم يمكث غير فترة قصيرة ، إذ عفا عنه « الباشا الوالى » بشفاعة القاضى ، وأذن له فى الخروج وممارسة مهام منصبه فيما عدا وظيفة التدريس بالمدرسة « الصلاحية » التى أناب عنه فيها الشيخ : « محمد الشبراوينى »[1] .

٣ — موقفه من الفرنسيين :

لم يمض على الشيخ الشرقاوى فى منصب « مشيخة الجامع الأزهر » أكثر من خمسة أعوام حتى احتل مصر « نابليون بونابرت » بجيوشه فى مستهل عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فكان ذلك من أعظم الأحداث وأخطرها فى تاريخ مصر الحديثة ، وفى عهد مشيخة الشيخ الشرقاوى .

وبعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين مصر فكروا فى إدخال بعض الإصلاحات على النظم السياسية بإنشاء مجلس نيابى أطلقوا عليه اسم : « الديوان الوطنى » .

وحينما شرعوا فى تكوينه اتجهوا إلى المشايخ لتنفيذه ، وكان هذا الاتجاه يساير إذ ذاك روح العصر ، ويتفق مع ما كان معروفاً فى أوربة خلال العصور المتوسطة ؛ إذ كان للعلماء ورجال الدين منزلة سامية من التقديس والاحترام فى نفوس الناس سببها اعتقادهم فى ورعهم وصلاحهم وتقواهم ، بجانب ما كان يتمتع به الكثير منهم من الثراء ، وعظيم الجاه ، فكان العلماء ورجال الدين فى تلك العصور أهم عنصر يمثل البلاد ، ويتولى الكلام باسم أهلها ، ويذود عن حقوقهم ، ويخطب ودهم الحكام [2] .

لم تغب هذه الاعتبارات عن (نابليون) حينما شرع فى تكوين « الديوان الوطنى » فأرسل إلى شيوخ الأزهر وغيرهم من الأعيان والتجار ، فلبوا دعوته فى « الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ هـ » (سبتمبر سنة ١٧٩٨ م) ، وكان فى مقدمة الشيوخ شيخ الجامع الأزهر الشيخ عبدالله

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٢ مع بعض تصرف ، ولعل الوالى الذى وقفه هو : «صالح باشا» الذى ولى من ١٢٠٩هـ — ١٢١٠ هـ حيث خلفه باكر باشا — الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٠

(٢) تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثه لمحمد رفعت بك ص ٣٥ مع تصرف .

الشرقاوى . ولما التأم المجلس شرع « ملطى القبطى » فى إلقاء بيان أعده نابليون أشاد فيه بمركز مصر وخصبها وغناها ، وكيف أن هذا سبب لها المتاعب ، وأطمع فيها الأعداء ، وأنه يريد حمايتها وإنقاذها من أعدائها ، ويرغب فى تنظيمها وإصلاح أحوالها ، وأن هذا مما يوجب شكر المصريين له ، وخلودهم إلى السكينة والهدوء حتى ينهض بمهمته ... إلخ .

وطلب فى ختام بيانه من المجتمعين اختيار شخص ليكون كبيراً ورئيساً عليهم يمتثلون أمره ، ويستمعون له ، فأشاروا إلى الشيخ « الشرقاوى » فأبى نابليون ان يكون الاختيار بهذه الطريقة ، وأشار عليهم بالاقتراع فتم ذلك وأسفرت نتيجة الاقتراع عن انتخاب الشيخ : « عبدالله الشرقاوى » شيخ الجامع الأزهر رئيساً « للديوان » (١) .

وكان هذا الديوان مكوناً من تسعة أعضاء غير رئيسه وغير سكرتيره الشيخ : « المهدى » وبذلك كان نابليون أول من أدخل المبدأ « النيابى » فى مصر الحديثة ، وكان تأسيس هذا « الديوان » أول خطوة لإشراك العناصر الوطنية مع الحكام فى إدارة شئون البلاد (٢) .

وكانت تلبية الشيوخ لدعوة نابليون ، وقبول شيخ الجامع الأزهر لرئاسة الديوان الوطنى بمثابة اعتراف للحكم الجديد ، وبالتالى مظهراً من مظاهر التعاون مع الحكام الجدد فى إدارة دفة الحكم فى البلاد ، غير أن هذا اللون من السياسة ، وهذا الضرب من الإصلاح الذى أدخله نابليون بمصر لم يجد ترحيباً كافياً من عامة الشعب ، ورأى الناس أن هذا كله خداع وغش ليمكنوا لأنفسهم فى البلاد فداخل الناس الشك ، وارتابوا فى نوايا الفرنسيين فثاروا ضدهم ، وكانت بين الفريقين مصادمات سفكت بسببها الدماء ، وأزهقت فيها أرواح نتيجة السرعة فى الإصلاح من جانب الفرنسيين ، وسوء الظن والشك من جانب المصريين .

---

(١) الجبرتى ج٣ ص٢٣ ، ٢٤

(٢) تاريخ مصر فى الأزمنه الحديثة لمحمد رفعت بك ص٦٠ ، وتاريخ العصر الحديث للدكتور محمد صبرى ص٢٧ . وقد تطور نظام الحكم فى عهد نابليون ؛ فبعد أن أنشأ «ديوان القاهرة» أنشأ الجمعيه المسماة «بالديوان العام» التى لم تجتمع إلا مرة واحدة ، ثم جعلها من هيئتين : «الديوان العمومى الكبير ، والديوان الخصوصى» ، وبعد ذلك ضمت هيئتا الديوانين بعضهما لبعض وجعلتا ديواناً واحداً سمى « الديوان »)

راجع فى ذلك كتاب تاريخ الحياة النيابية فى مصر تأليف الأستاذ محمد خليل صبحى ج ٤ ص ٥ .

٤ ــ موقف الفرنسيين من الأزهر وأهله :

يتجلى هذا الموقف عقب أحداث ثلاثة : ثورة القاهرة الأولى ، ومصرع الجنرال كليبر ، وثورة القاهرة الثانية :

(ا) أما عن الموقف الأول ؛ فإنه حينما حدثت ثورة القاهرة الأولى فى شهر جمادى الأول سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ، استعمل الفرنسيون فى قمعها وإخمادها كل الأساليب الحربية الحديثة المعروفة لوقتهم ، وضربوا الأزهر الشريف ، وحى الحسينية بالمدافع الثقيلة ، فدمرت قنابلها الكثير من المبانى ، وقضت على العدد الوفير من الأرواح ، وهرع الناس من شدة الهول إلى الأماكن الآمنة طلباً للنجاة ، وحبًّا للحياة .

ولم يكتف الفرنسيون بما نزل بالناس من روع ، وما أصابهم من هلاك ، بل ارتكبوا أفظع جرم ، وأعظم إثم لا يزال وصمة عار لنابليون ورجال حملته إلى اليوم وهو دخولهم الأزهر بخيولهم ، وتفرقهم فى صحنه ومقصورته . وربطهم للخيول فى قبلته ، وعبثهم بما فى الأروقة والحارات ، وتكسيرهم القناديل ، وتهشيمهم خزائن الطلاب واستيلاؤهم على أمتعتهم ، وإتلافهم للكتب والمصاحف وطرحها أرضاً ، ووطئهم لها بالنعال ، وإخراجهم من فى الأزهر من الطلاب حتى صار الأزهر بمثابة إسطبل لخيولهم ، و « قشلاق » لهم ، إلى أن تدخل المشايخ فى الأمر فأمر نابليون بإخلاء الأزهر من الجنود بعد أن تتبع الكثير من شيوخه الذين اتهموا بتزعم الثوار وقبض على معظمهم وحبسهم فى « بيت البكرى » أمثال الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى .

كانت تلك أولى المحن القاسية التى حلت بالأزهر وبنيه فى عهد الفرنسيين ، وقد بقى هؤلاء الزعماء من لمشايخ فى محبسهم ، ولم تنفع فيهم شفاعة عاجلة ، بل ماطل الفرنسيون فى إطلاق سراحهم ، وطلبوا من الشفعاء التريث والانتظار ، ثم كانت النتيجة أن ساقوهم عرايا إلى القلعة ، وضربوهم ضرباً مبرحاً ، وأخيراً قتلوهم رمياً بالرصاص وألقوهم خلف القلعة [١] .

---

(١) الجبرتى ج٣ص٢٦ ــ ٢٩ ، وتاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة لمحمد رفعت بك ص ٦٤ ، وكتاب « الأزهر » لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق ص ١٣٠ .

(ب) وأما عن الموقف الثانى : فإنه لما قتل الجنرال « كليبر » خليفة بونابرت بمصر فى شهر المحرم سنة ١٢١٥ هـ (يونية سنة ١٨٠٠ م) ، وعرف أن القاتل يحتمى بالأزهر ، وهو : « سليمان الحلبى » انتهكوا ثانية حرمته بالتفتيش والبحث عن الجانى وشركائه فى جميع أروقته وحاراته ، وعبثوا بما فيها من أمتعة وغيرها حتى اهتدوا أخيراً للقاتل وعرفوا شركاءه فأجروا تحقيقاً دقيقاً اتجهوا فيه إلى اتهام شيخ الجامع الأزهر الشيخ « عبدالله الشرقاوى » حيث وجهوا للمتهم سؤالا : « هل تحدث إلى الشيخ الشرقاوى فيما عزم عليه من قتل كليبر ؟ ... ولم ينج الشيخ الشرقاوى إلا إجابة المتهم : « بأنه لم ير هذا الشيخ وأنه ليس من دينه (يريد مذهبه) ؛ لأن الشيخ شافعى ، وهو حنفى » (١) .

وكان هذا بلاء من لون جديد ، يهدف إلى إشراك شيوخ الأزهر فى جريمة قتل سياسى ليكون ذلك مبرراً لانتقام جديد ، وشفيعاً لهم أمام الرأى العام عما ارتكبوه فعلا من آثام ولكن لم ينجح التدبير ، وبقى الوزر يثقل كاهلهم ، والجور والإرهاق والعسف بطبع سياستهم مما أدى إلى انفجار جديد . وبلغ من ظلمهم أن حرموا على الطلبة الأتراك دخول الأزهر ، وبقى هذا المنع حتى تم جلاؤهم عن مصر (٢) .

(جـ) وأما عن موقفهم الثالث : فإنه عقب انفجار أهل القاهرة فى ثورتهم الثانية آمن الفرنسيون أن هذه الثورات من تدبير المشايخ ، وأنهم روحها الحى . فأسرفوا هذه المرة فى مطاردتهم إياهم ، واستعملوا معهم أشد الأساليب قسوة وعنفاً ، وقبضوا على جمهرة منهم ، وطوحوا بهم فى غياهب سجون ، وتركوهم يقاسون مرارة السجن ، وألم التعذيب دون أن يعبأوا بما لهم من حرية ، وظلوا فى محبسهم حتى أطلق سراحهم نتيجة لمعاهدة العريش سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) بينهم وبين العثمانيين والإنجليز ، وكان ممن أفرج عنهم الشيخ الشرقاوى ، والشيخ الأمير ، والشيخ محمد المهدى ، كما أفرج عن شيخ السادات ، وعن حسن أغا المحتسب ، ورضوان كاشف الشعراوى ، وغيرهم(٣).

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ ، ١٣٥ .
(٢) كتاب : « الأزهر ...» لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق ص ١٣١ .
(٣) الجبرتى ج ٣ ص١٩٢ .

لم يلبث الفرنسيون أن نزحوا عن البلاد نهائياً بتسليم الجنرال « مينو » فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٦ هـ (سبتمبر سنة ١٨٠١ م) بعد أن مكثوا بها ثلاث سنوات ، وثلاثة أشهر تقريباً أرهقوا فيها أهل البلاد عامة من أمرهم عسراً ، ونالوا من قداسة الجامع الأزهر ، وكرامة أهله ، وأنسوا الناس بعض ما لهم من فضل التوجيه نحو الإصلاح السياسى والاجتماعى ، والاقتصادى بسبب قسوتهم معهم حتى دفعوهم إلى ناحية المعسكر الآخر المؤلف من العثمانيين ، والمماليك ، والإنجليز ، وتضافرت جهود الجميع حتى أخرجوهم من البلاد ، وانتزعوا السلطة من أيديهم[1] .

٥ ــ الشيخ الشرقاوى وولاية محمد على الكبير لمصر : ة

(ا) وفد : « محمد على الكبير » إلى مصر ضمن أفراد القوة العسكرية التى سيرتها الدولة العلية إليها سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) بقيادة القبطان حسين باشا ، وقد أبدى تفوقاً ، ومقدرة ، وشجاعة فى كل المعارك التى اشترك فيها وبخاصة موقعة : « قلعة الرحمانية » فكوفئ بالترقية إلى رتبة (قائد) فى الجيش ، ثم ألحق بمعية والى مصر « خسرو باشا » تقديراً لجهوده وبسالته .

وقد أتاحت له الإقامة الطويلة بمصر أن يشاهد عن كثب الصراع المرير بين الولاة العثمانيين والأمراء المماليك منذ مغادرة الفرنسيين البلاد ، كما وقف على الآلام والمحن التى كان يقاسيها الشعب المصرى من جراء هذا العداء الدائم ، ورأى بثاقب فكره أن الظروف مناسبة لكى يعمل شيئاً لنفسه ، فأخذ يتدخل فى الأحداث الجارية ولكن بحذر وحيطة حتى لا يتهم فى ولائه للدولة العلية ، أو فى إخلاصه وحبه للشعب المصرى ، وظل يرتقب الوقت المناسب للعمل ، ولم يطل انتظاره حيث كانت الأحداث تجرى على مسرح السياسة المصرية بسرعة فائقة حتى جذبت « محمد على » إليها واضطر أن يقف من الوالى « أحمد باشا خورشيد » موقفا صريحاً حينما امتنع عن إمداده بجند الدلاة (المغاربة) لمواصلة قتال المماليك بالوجه القبلى ، ووقف على سوء نيته حينما صرح للمشايخ : « بأنه إذا لم يرجع محمد على لمقاتلة المماليك فإنه لابقاء له فى مصر بل يجب أن يذهب إلى بلده ، وأن

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠٤ مع التصرف .

بيده أمراً من السلطان بعزل من يشاء ، وتولية من يشاء ... » ، ولم يكن الشيخ الشرقاوى ، ولا الشيخ البكرى ، ولا الشيخ المهدى من شهود هذا المجلس فكتب إليهم الوالى بالحضور ليتضامنوا معه فى منع « محمد على » من دخول القاهرة ، ولكن « محمد على » تمكن من دخولها بجنده فى المحرم سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) وأخذ فى التدبير على « أحمد باشا خورشيد » وخلعه بعد الذى بلغه من تحديه له ، ومحاولته منع الناس من الاتصال به ، أو التعاون معه (١) .

(ب) ولاية « محمد على » مصر :

وقد اتسعت شقة الخلاف بين الرجلين ، ولم تنفع الوساطات لإزالة ما بينهما ، وكثر عبث الجند وفسادهم ، وضج الشعب من هذه الفوضى ، وفى أثناء ذلك قدم رسول من « إسلامبول » يحمل تقليداً بولاية « محمد على » (جدّة) فأظهر الامتثال ، وأخذ يستعد للسفر ، غير أن استشراء الشر والفساد حمل المشايخ وعامة الناس على التفكير فى خلع الوالى « خورشيد باشا » وتولية « محمد على » مكانه ، فاجتمعوا ببيت القاضى ، واستعرضوا الحالة وانتهوا إلى وجوب تولية « محمد على » فركبوا إلى بيته وقالوا له : « إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية ، فقال : ومن تريدونه يكون والياً ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له « كركاً وعليه قفطان » وقام إليه السيد عمر مكرم ، والشيخ عبدالله الشرقاوى فألبساه له ، ونادوا بذلك فى المدينة ، وأرسلوا بالخبر إلى (أحمد باشا خورشيد) فلم يمتثل وقال : « إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر « الفلاحين » ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة » ، وظل على امتناعه رغم وصول فرمان بإقرار « محمد على » فى منصبه استجابة لرغبة الشعب بتوليته فى أوائل شهر صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م) ، وبقى على عناده حتى وفد رسول من قبل السلطان وهو : « صالح أغا القابجى » فى شهر ربيع

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩٦ ، ٣٠٠ ــ ٣٠٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، والخطط التوفيقية ج١ ص ٦٢ ــ ٦٥ ، وكتاب تاريخ العصر الحديث ... للدكتور محمد صبرى ص ٣٢ .

الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (يوليه سنة ١٨٠٥ م) ومعه فرمان مضمونه : « أن محمد على والى جدّة سابقاً ، ووالى مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع الأول (١٢٢٠ هـ — ١٨٠٥ م) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ... إلخ » ، فنفذ الأمر بعد مشاورات طويلة ونزل من القلعة بأهله وحاشيته وسلمها فى العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ (أغسطس سنة ١٨٠٥م) (١)

(ج) محمد على والأزهر :

نزل بالأزهريين أيام الحملة الفرنسية كثير من المظالم ، فلما كان عهد « محمد على » لم يجد الأزهر عطفاً من النهضة القومية أول الأمر ، ولم يكن فى مقدور « محمد على » أن يحتفظ للأزهر بمقام خاص ، بل لقد اضطرت الحكومة فى عهده إلى الاستيلاء على أملاك الأزهر الواسعة عندما دعت مصلحة الدولة إلى ذلك (٢) .

ومع ذلك فإن رغبة « محمد على » فى الإصلاح ، وفى إقامة بناء دولته الجديدة على أسس سليمة جعلته يرغب فى الاسترشاد بالأفكار الأوربية ، فاتجه إلى استشارة الفنيين من الغربيين ، وإلى إرسال البعوث العلمية ، فأنشأ فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) البعثة العلمية فى باريس ، واختار لها طائفة من أنجب طلاب الأزهر ليتلقوا العلم على أساليب جديدة ، فكانت هذه خطوة عملية من جانبه فى سبيل إصلاح الأزهر ، وإدخال أساليب البحث الحديثة فيه ، والحث على الاهتمام بالعلوم الحديثة التى كانت مهملة كالرياضيات ، وعلوم الحساب ، والطبيعة ، والتاريخ ، والجغرافية .

وقد نجحت هذه السياسة التعليمية فى الأزهر حيث احتلت تلك العلوم مكانتها بين باقى المواد التى تدرس فى الأزهر ، وأخذت تدب الحياة فى الأزهر بعد الركود الذى أصيب به من قبل ، وأخذ الجيل الجديد يترجم

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٤٨ — ٣٦١ ، والخطط التوفيقية ج١ ص ٦٥ ، وكتاب تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة لمحمد رفعت بك ص ٨٠—٨٧ ، وكتاب تاريخ العصر الحديث...» للدكتور محمد صبرى ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (عدد يونية سنة ١٩٣٥) ص ٥٤ ، ٦٠ .

المصنفات الأوربية . وخرج الأزهر من عزلته . وشارك العالم فى حياته المتجددة ، وتوالت بعد ذلك عناية الولاة ، والسلاطين . والملوك من هذه الأسرة العلوية الكريمة على هذا المعهد العتيق حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من تقدم ورقى يعتز بهما بين جامعات العالم . وصار يفخر بزعامته العلمية وقدمه عليها جميعها[١].

بناء رواق الشراقوة :

من أهم الآثار التى خلفها الشيخ الشرقاوى ، والتى لا تزال باقية إلى اليوم « رواق الشراقوة » بالأزهر ، فهو صاحب فكرته . وهو القائم على تشييده ، والمشرف على رعاية أهله ، وتنظيم حياتهم ، وأرزاقهم على عهده . يقول الجبرتى : « واتفق للمترجم فى أيام الأمراء المصريين أن طائفة المجاورين بالأزهر من الشرقاويين يقطنون بمدرسة الطيبرسية بباب الأزهر ، وعمل لهم المترجم خزائن برواق (معمر »[٢] فوقع بينهم وبين المجاورين بها مشاجرة فضربوا (نقيب) الرواق ، فتعصب لهم الشيخ إبراهيم السجينى شيخ الرواق على الشرقاويين ومنعوهم من الطيبرسية وخزائنها وقهروا المترجم وطائفته ، فتوسط بامرأة عمياء فقيهة كانت تحضر عنده فى درسه إلى « عديلة هانم » ابنة إبراهيم بك فكلمت زوجها إبراهيم بك المعروف بالوالى : بأن يبنى له مكاناً خاصاً بطائفته فأجابه إلى ذلك . وأخذ سكناً أمام الجامع المجاور لمدرسة الجوهريةمن غير ثمن وأضاف إليه قطعة أخرى وأنشأ ذلك رواقاً خاصاً بهم . ونقل إليه الأحجار ، والعمود الرخام الذى بوسطها من جامع الملك الظاهر بيبرس خارج الحسينية وهو تحت نظر الشيخ إبراهيم السجينى ليكون ذلك نكاية له نظير تعصبه عليه ، وعمل به قوائم وخزائن ، واشترى له غلالا من جرايات الشون وأضافها إلى أخباز الجامع ، وأدخلها فى دفتره يستلمها خباز الجامع ويصرفها خبز قرصة لأهل ذلك الرواق فى كل يوم ووزعها على الأنفار الذين اختارهم من أهل بلاده[٣] » .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (عدد يونية سنة ١٩٣٥) ص ٦٠ـ٦٣ مع بعض التصرف

(٢) رواق معمر ، أو رواق ابن معمر : هو رواق عام لجميع الأجناس

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

ولا يزال هذا الرواق عامراً إلى اليوم يحمل اسم مؤسسه ، وينتسب إليه طلاب مديرية الشرقية .

شيوخه :

وقد تلقى العلم فى الأزهر الشريف على جملة من عظماء علماء عصره ، وسمع الكثير من كبار الشيوخ أمثال : الشيخ الملوى ، والشيخ الجوهرى ، والشيخ الحفنى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ،وأخيه الشيخ يوسف ، والشيخ الدمنهورى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ، والشيخ البليدى ، والشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ محمد الفاسى ، وشيخ الشيوخ الشيخ على الصعيدى العدوى ، والشيخ عمر الطحلاوى ، وسمع الموطأ فقط على الشيخ على بن العربى الشهير بالسقاط (١)

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات جليلة تدل على سعة اطلاعه ، وتمكنه ، وعظيم فضله منها : حاشيته على التحرير ، وشرح نظم يحيى العمريطى ، وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضاً ، وشرح مختصر فى العقائد ، والفقه ، والتصوف ، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ، ومختصر الشمائل وشرحه له ، ورسالة فى لا إله إلا الله ، ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع ، وشرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف ، وشرح ورد سحر للبكرى ، ومختصر المغنى فى النحو (٢) .

وله أيضا طبقات جمعها فى تراجم الفقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر (الهجرى) ، نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكى والأسنوى ، وأما المتأخرون فنقلهم عن تاريخ الجبرتى .

وله تاريخ مختصر فى نحو أربعة كراريس عدد فيه ملوك مصر ، وذكر فى آخره خروج الفرنسيين ودخول العثمانيين (٣) .

---

(١) الجبرتى ج٤ص١٧٠ ، ولم تذكر المراجع التى تحت يدنا أسماء تلامذته .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٠ .

(٣) الجبرتى ج ٤ ص١٧٤ . ويذكر أن كتاب التاريخ (فى غاية البرود) وينسب إليه الغلط فيه ، ولم يتأت لنا الاطلاع عليه حتى كنا نقف على مدى صحه هذا الحكم .

وفاته :

ومكث الشيخ الشرقاوى فى منصب مشيخة الجامع الأزهر مدة عشرين عاماً ، مرت به خلالها عدة أحداث جسام ، ومحن قاسية ، ووقائع مشهورة ، ثم مرض وتوفى يوم الخميس الثانى من شهر شوال سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وصلى عليه بالجامع الأزهر فى مشهد حافل رهيب ، ودفن بمدفنه الذى بناه لنفسه بالخانكاه التى أنشأتها (خوند طغاى الناصرية) بالصحراء خارج باب البرقية على يمين السالك إلى قرافة البستان ، وكان الشيخ الشرقاوى ناظراً عليه

وقد عقد على مدفنه قبة ، وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عال مربع ، وعلى أركانه عساكر فضة [١] .

ويقول الجبرتى : « ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة أكبر من طبيزيته التى كان يلبسها فى حياته بكثير ، وعمموها بشاش أخضر ، وعصبوها بشال كشميرى أحمر ، ووقف شخص عند باب مقصورته وبيده مقرعة يدعو الناس لزيارته ويأخذ منهم دراهم ، ثم إن زوجته وابنه ومن يلوذ بهم ابتدعوا له موالد وعيداً فى أيام مولد العفيفى وكتبوا بذلك فرماناً من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد ، وكتبوا أوراقاً ورسائل للأعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور ، وذبحوا ذبائح وأحضروا طباخين وفراشين ومدوا أسمطة بها أنواع الأطعمة والحلويات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الأشاير والبدع ... »[٢] عليه رحمة الله .

تعقيب :

وبعد فتلك صورة حية مشرقة لما كان عليه معظم « شيوخ الجامع الأزهر » فى الماضى ، وهى جديرة حقاً بأصحاب المناصب الدينية الكبيرة ، ومنصب : « شيخ الجامع الأزهر » من أعلى المناصب فى الدولة ، وشاغله من رجال الصف الأول بين موظفيها ، فمقامه الدينى الممتاز ، ومركزه الاجتماعى

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٤

العظيم يحتم عليه أن يكون من الطراز الأول ديناً ، وخلقاً ، وعلماً ، يهب نفسه ، ووقته ، وماله لرعاية مصالح الجماعة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويجعل بابه كعبة لكل القصاد ، وبيته مثابة وأمناً لمريدى علمه ، ورفده ، ومعونته الأدبية ، وبخاصة فى هذه الأزمنة التى قست فيها القلوب ، وأنكر فيها الإنسان أخاه الإنسان ، فلا ود ، ولا تعاطف ، ولا رحمة ، ليكون هذا السلوك إحياء لسيرة هؤلاء الشيوخ الأماثل ، ونهجاً قويماً يسلكه أبناء الجيل الحاضر فيما بينهم ، وهداية لمن يأتى فى العصور المقبلة بعدهم .

ولعل المشرع حينما وضع شروطاً خاصة لمن يلى منصب : « مشيخة الجامع الأزهر » قد لاحظ كل هذه المعانى والمثل حتى يضمن أن يربط مشايخ الجامع الأزهر اللاحقون حاضرهم بماضى أسلافهم المجيد ، وحتى يبقى لهذا المنصب الجليل قدسيته ، وجلاله وهيبته فى نفوس العامة والخاصة .

وفقنا الله جميعا إلى أقوم سبيل . وأعاننا على إكمال هذه الحلقة فى أقرب فرصة والله المستعان .

زكى محمد غيث